القدس في العصر الوسيط

د. رشاد الامام
استاذ التاريخ العربي الحديث
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الجامعة التونسية ـ تونس

ان مدينة القدس تهم جميع الآديان السماوية، تهم المسلمين واليهود والنصارى، فهي عاصمة مملكة النبي سليمان والمدينة التي رفع منها المسيح عليه السلام الى السماء. أما في الفترة الاسلامية فقد كانت في بداية العهد النبوي قبلة المسلمين، وهي محل معراج النبي (ص) الى السماء. ومدحها الله تعالى في تنزيله بقوله : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير» [١].

أولا : أوضاع القدس في العهدين الايوبي والمملوكي :

بعد وفاة النبي (ص) وتنظيم حركة الفتح على أيدي خلفائه كانت القدس من المدن التي قصدها العرب المسلمون بجيوشهم ولكنها إستعصت عليهم بالرغم من طول الحصار الى أن رضي حكامها بتسليمها الى الخليفة عمر بن الخطاب. ونظرا لأهمية القدس سعى الفاروق سنة ١٥ هـ/٦٣٦م لاستلام المدينة وأعطى أهلها عهدا يتضمن أمانا يحفظ أرواحهم وأموالهم، ويضمن لهم ممارسة طقوسهم الدينية مقابل دفعهم للجزية. وبقي المسلمون سادة هذه المدينة المقدسة الى سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م عندما افتكتها الجيوش الصليبية من أيدي المسلمين. وظلت تحت سلطة الفرنج الى أن استرجعها صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م.

عندما تسلم صلاح الدين القدس أتاح للفرنج مغادرتها لقاء قدر معين من المال على أن يدفع خلال أربعين يوما كما نصت معاهدة الصلح. وبعد انقضاء هذه المدة لم يبق في المدينة من النصارى الا بضعة آلاف، بعد أن كان عددهم يناهز المائة الف [٢]. لقد كان صدى فتح القدس ورجوعها لحوزة المسلمين كبيرا جدا في كامل العالم العربي والاسلامي في ذلك العهد. يثبت ذلك كثرة الوافدين اليها للاستقرار بها أو لزيارتها والتبرك بها من شتى أنحاء البلاد الاسلامية، ومن مختلف الفئات

(١) القرآن الكريم، سورة الاسراء، آية ١.

(٢) أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بعماد الدين الكاتب الاصفهاني (ت. ٥٩٧هـ/١٢٠١م) كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي (القاهرة : مطبعة الموسوعات، ١٩٠٣)، ص ٤٣، ٤٧.

الاجتماعية. والرسائل التي بعث بها صلاح الدين إلى أمراء الدول الاسلامية في المشرق والمغرب لاعلامهم بانجاز الفتح، هي أكبر دليل على مدى الاستبشار بانجاز الفتح [٣]. وبذلك الانتصار استرجعت المدينة صبغتها الاسلامية، ورتب بها هذا الفاتح الوظائف العلمية والادارية والتنظيمية المختلفة ورجعت للمدينة أصالتها الاسلامية ورونقها العربي.

وبعد وفاة صلاح الدين سنة ٥٩٨هـ/١١٩٣م كانت القدس في حصة ابنه الاكبر علي وهو الملقب بالملك الأفضل (٦٢٢هـ/١٢٢٥م). وهو الذي عمّر المدينة من آثار الحرب وصرف في ذلك أموالا كثيرة الى حد جعل الاصفهاني يخاف عليه من الافلاس ويقول : «ونفض الاكياس حتى خلنا به ... الافلاس» [٤]. وتداول الايوبيون حكم المدينة بعد الملك الأفضل، فتولاها الملك العزيز ملك مصر وزارها بالمناسبة سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥م. وفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م استتب الامر للعادل وبعده تولاها الملك المعظم عيسى (٦٢٤هـ/١٢٢٦م)، وفي عهده حصلت أحداث هامة فبعد أن كانت المدينة موضع العناية عاد فأمر بتخريبها سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م خشية أن يستولي الافرنج عليها بعد استيلائهم على دمياط في السنة نفسها [٥]. وكان تهديم المدينة شاملا الى حد انه لم يتبق من المباني القائمة فيها إلا كنيسة القيامة، وقبة داود، والحرم الشريف [٦]. ونتيجة لذلك هاجر عدد كبير من سكان القدس إلى مناطق اخرى.

وتولى الأمر من بعد المعظم ابنه الملك الناصر داود الذي تغلب عليه الملك الكامل صاحب مصر، وافتك منه أكثر البلاد التي كانت تابعة له سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م ومنها مدينة القدس. غير أن في السنة الموالية تخلى عنها لملك الفرنجة الامبراطور فريدريك الثاني وذلك بموجب عقد صلح تم بينهما. ينص هذا الصلح في جملة ما ينص، على أن يأخذ ملك الفرنج مدينة القدس من المسلمين عدا الحرم الشريف ومزاراته، وان تبقى هذه المدينة خرابا، كما هي، ولا تجدد فيها عمارة البتة [٧]...

وقد كان وقع تسليم القدس الى الفرنج عظيم الأثر فأقيمت المآتم حسرة عليها في البلاد الاسلامية، حيث سلمت لاعدائهم بالمصالحة بعد أن عجزوا عن استردادها بالقوة. كذلك كان هذا الواقع الجديد كارثة على المسلمين وعاملا رئيسيا لتشجيع الصليبيين على توطيد حكمهم في ذلك الجزء المقدس من البلاد الاسلامية. خاصة وأن الامدادات كانت متواصلة للامبراطور على طريق البحر [٨]. يصف الحنبلي وقع تسليم القدس للامبراطور فريدريك بقوله : «تسلم الامبراطور القدس... على القاعدة المذكورة وعظم ذلك على المسلمين وحصل به وهن شديد وارجاف في الناس...

---

(٣) المصدر السابق، ص ٤٦؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٧م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٣ج، تحقيق جمال الدين الشيال (القاهرة : المطبعة الاميرية، ١٩٥٧م)، ج٢، ص ٢٣٣ـ ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٨.

(٤) المصدر السابق، ج٢، ص ٢٣٩.

(٥) المؤيد عماد الدين اسماعيل بن الافضل أبو الفدا (ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، المختصر في أخبار البشر، ٤ج (القاهرة : المطبعة الحسينية، ١٩٠٧م)، ج٣، ص ١٢٢، F. Buhl, «al-kuds», The Encyclopaedia of Islam (Leiden : Brill), vol. 2, 1927.

(٦) بوهل، «القدس»، دائرة المعارف الاسلامية.

(٧) عز الدين أبو الحسن ابن الاثير (ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)، الكامل في التاريخ، ٩ج (القاهرة : مطبعة الاستقامة، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٨م)، ج٩، ص ٣٧٦ ـ ٣٧٨؛ قطب الدين موسى بم محمد اليونيني (ت. ٧٢٦هـ/١٣٢٦م)، ذيل مرآة الزمان، ٢ج (حيدر أباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٥)، ج١، ص ١٢٩ ـ ١٤١.

(٨) مجير الدين العليمي الحنبلي (ت. ٩٢٨هـ/١٥٢٢م)، كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، (القاهرة : المطبعة الوهبية، ١٨٦٦م)، ج٢، ص ٣٥٨.

وارتفع بكاء الناس وضجيجهم لذلك فلا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم» [٩]. وقد اغتنم الفرنج فرصة اختلافات الأيوبيين وتقاتلهم وعمروا، خلافا لما نص عليه الصلح، قلعة غربي المدينة. فتوجه الملك الناصر داود بجيشه الى القدس ونازل القلعة الجديدة حتى استسلمت فهدمها ثم استرجع القدس ثانية لحوزة الاسلام سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م [١٠]. وفي سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م زار الملك الصالح المدينة وأمر باعادة عمارتها.

وعندما قتل الملك غياث الدين توران شاه سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، على يد مماليك أبيه الصالح نجم الدين، ونصب المملوك عز الدين أيبك التركماني سلطانا على مصر، انفصلت الشام عن مصر واستقل بحكمها الامراء الايوبيون. وبقيت الحرب سجالا بين مماليك مصر من ناحية والامراء الايوبيين من ناحية أخرى الى أن تم الصلح بين الفريقين سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م. وبموجب هذا الصلح ابرم الاتفاق على أن تكون الممالك التي تقع شرقي نهر الاردن للايوبيين والتي تقع غربيه للمماليك. وبهذا الاتفاق دخل الساحل الشامي تحت حكم المماليك، بما في ذلك مدينة القدس [١١]. وبضم القدس الى الحكم المملوكي في مصر، يبدأ فصل جديد في تاريخ هذه المدينة في العصر الوسيط.

حظيت القدس في عهد السلاطين المماليك باهتمام كبير. وأهميتها ترجع أساساً لأسباب دينية، ذلك لأن الأحداث الدينية مثل الأحداث العسكرية تخدم مصالح سياسية. واحتلال الصليبيين لها مدة طويلة (٤٩٣ ـ ٥٨٣هـ/١٠٩٩ ـ ١١٨٧م)، ثم استرجاع صلاح الدين لها، رسخا في هذه المدينة الاهمية والمجد بصفة متجددة. وتأكيدا لهذا الاهتمام نلاحظ أن معظم انجازات المماليك في القدس تتمثل في زياراتهم لها وتشييد الابنية الدينية والعلمية والتدريسية والخيرية أو ترميمها. وقد كانت هذه الانجازات وغيرها والاوقاف التي أوقفت عليها موردا من الموارد الاقتصادية للمدينة [١٢]. ولعل أهم هذه الزيارات وما نتج عنها من انجازات هي زيارات الظاهر بيبرس (ت. ٦٧٦هـ/١٢٧٧م) الأربع، وزيارة الملك المنصور سيف الدين قلاوون. والسلطان الناصر محمد بن قلاوون وقد تم على يده وعلى يد الامير تنكز نائب السلطنة بالشام «حركة عمرانية لا مثيل لها في كامل العهد المملوكي، شملت انشاء المدارس والاسواق والقنوات والبرك والحمامات...» [١٣].ويذكر القلقشندي أن الخراب الذي غلب من قبل على هذه المدينة « تراجع للعمارة (في عهد الناصر) وصارت في نهاية الحسن، بها المدارس والربط والحمامات والاسواق وغيرها» [١٤].

الظاهر بوقوق، مؤسس دولة المماليك البرجية، زار القدس سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م. وفي عهده على ما يذكر الحنبلي أبطلت المكوس والمظالم والرسوم التي أحدثت قبله في المدينة وأحدث عدة

---

(٩) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(١٠) اليونيني، ذيل مرآة الزمان. ج١، ص ١٤١ ـ ١٤٢.

(١١) المصدر السابق، ج١، ص ٥٨؛ أبو الفداء، المختصر، ج٣، ص ١٨٦؛ زين الدين عمر بن مظفر الشافعي بن الوردي (ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تتمة المختصر في أخبار البشر، ٢ج (القاهرة : المطبعة الوهابية، ١٨٦٥م)، ج٢، ص ١٨٩.

(١٢) انظر كاتب هذا المقال د. رشاد الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط (تونس : الدار التونسية للنشر، ١٩٧٦م)، ص ٦١ ـ ٦٢، ١٤١ ـ ١٤٤.

(١٣) المصدر السابق، ص ٦٦ ـ ٦٧.

(١٤) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي (ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الاعشى فى صناعة الانشاء (القاهرة : مطابع كوستاسوماس وشركاه، ١٩٦٣م)، ج٤، ص ١٠١.

منشآت دينية وعلمية وخيرية [١٥]. ومثلها آثار الملك الاشرف برسباي الظاهري [١٦] والسلطان الظاهر خشقدم (ت. ٨٧٢هـ/١٤٩٧م) [١٧]. آخر من اهتم بمدينة القدس من سلاطين المماليك وله آثار حسنة فيها الملك الاشرف قايتباي الظاهري، زار المدينة سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٥م. وعلى الرغم من أنه لم يبق فيها أكثر من ثلاثة أيام أزال عديد المظالم في القدس والخليل وتصدق بآلاف الدنانير وكذلك رمم وجدد عدة أماكن مقدسة وجلب مياه عين العروب اليها [١٨].

هذا ويعتبر أهم حدث يحصل للقدس في آخر هذه الفترة التاريخية هو سيطرة السلطان العثماني سليم الاول على الشام ومنه القدس. وقد كان انتصار العثمانيين في مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م على السلطان المملوكي قانصوه الغورى انتصارا فاصلا في تاريخ المنطقة. وأقام السلطان العثماني في القدس ثلاثة أيام ثم غادرها الى مصر التي تغلب عليها هي الاخرى سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م.

هذا الاهتمام الملحوظ من الملوك الايوبيين والسلاطين المماليك بالقدس يفسر أهمية المدينة كمركز ديني رئيسي للمسلمين خاصة وللمسيحيين واليهود. وأحداث الحروب الصليبية وأهوالها ما زالت عندئذ تطبق الاسماع وكذلك محاولات الصليبية والمسيحية عامة للرجوع الى المنطقة واحتلال القدس بالقوة ما زالت هي الاخرى على أشدها. واحتمالات الغزو الاروبي كانت منتصبة عاتية أمام أعين الملوك والامراء والسلاطين المسلمين في مصر والشام وفلسطين وكذلك في الدولة العثمانية الفتية.

ومن هذا القبيل تصميم الممالك الاروبية على احتلال القدس سنة ٨٤٨هـ/١٤٤٤م فقد جهزت تلك الدول جيشا مؤلفا من جميع أمصار النصارى بالغرب جند فيه من يقدر على القتال واتجه الى الشرق للاستيلاء على بيت المقدس. غير أن السلطان العثماني مراد تصدى له بكل قوة وقاتله يوم ١٦ شوال ٨٤٨هـ/١٤٤٥/١/٢٦م وانتصر على الصليبيين وشتتهم شر تشتيت. يصف السخاوي هذه الواقعة بقوله : «وكان قتال عظيم لم يعهد مثله في هذه الازمان قتل فيه من المسلمين أكثر من عشرة آلاف نفس ومن الروم أكثر من ذلك وكان النصر بعد ذلك للمسلمين حيث كسروا الآخرين كسرا محكما... وأمسكوا من الاسرى أكثر من عشرة آلاف نفس... وان النصر الذي حصل لابن عثمان كان خلاف القياس وذلك أن الكفار كان لهم مدة في التجهيز لاخذ بلاد السواحل من المسلمين والتوكل الى الاستيلاء على بيت المقدس والعياذ بالله فأجتمع منهم من جميع أمصارهم من يقدر على القتال...» [١٩]. وبهذه الهزيمة القاسية انتهت محاولات الاروبيين للاستيلاء على بيت المقدس بالقوة في العصر الوسيط.

وبجانب هذا المظهر الحربي المتسلط تمثلت أهمية القدس أيضا بالنسبة للاروبيين في وجود بعض قناصلهم فيها منذ العهد المملوكي. وأول قنصل مثل دولة أروبية بصفته الرسمية في القدس تم

(١٥) الانس الجليل، ج٢، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١.

(١٦) المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٥.

(١٧) المصدر السابق، ج٢، ص ٦١٨.

(١٨) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٦٢.

(١٩) محمد عبد الرحمان السنجاوي (ت. ٩٠٢هـ/١٤٩٧م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك (القاهرة : المطبعة الاميرية، ١٨٩٦م)، ص ٩٨ ـ ٩٩.

سنة ٨١٨هـ/١٤١٥م. وذلك عندما تحصل حكام البندقية على موافقة من السلطان المؤيد سيف الدين (حكم ٨١٥ ـ ٨٢٤هـ/١٤١٢ ـ ١٤٢١م) على اعتماد قنصل لبلدهم في القدس [٢٠]. وبعد ذلك التاريخ بعشرين سنة تحصلت جنوة أيضا على موافقة السلطان الاشرف برسباي على اقامة قنصل جنوي في المدينة [٢١]. وعند تتبعنا لنشاط هاتين القنصليتين نجد أن عملهما في هذه الفترة التاريخية لا يتعدى، في الغالب، حدود خدمة الحجاج النصارى الوافدين على القدس. خاصة وأن هاتين الدولتين كانت لهما سفن تقوم بنقل الحجاج والزوار النصارى الى الاراضي المقدسة [٢٢].

ثانيا : السكان والحياة الدينية في القدس

أ ـ المسلمون : كان سكان القدس بجميع فئاتهم لا يتجاوزون في عهد المماليك البحرية (٦٥٠ ـ ٧٨٩هـ/١٢٥٢ ـ ١٣٨٢م) العشرة آلاف نسمة. وكان المسلمون فيهم يشكلون الاغلبية العظمى بصفة مستمرة. وهم يرجعون بأصولهم الى مناطق مختلفة :

١ ـ عرب من الجزيرة العربية : استوطنوا المدينة في العهد الاسلامي وينسبون الى القبائل التالية : قبيلة بني عمر ويقال لهم العمريون وهم بطن من بني عدي بن كعب عدنانية من قريش، وقبيلة بني فيض وهم بطن من بني صخر، الجنوبية الاصل وهم قحطانيون، وقبيلة الجعافرة وهم بطن من بني هاشم، من العدنانية [٢٣].

٢ ـ المغاربة : وقد استقر أوائلهم زمن الايوبيين بل كانت في تلك المدينة حارة تنسب إليهم ويسكنونها، وقفها عليهم وعلى اختلاف أجناسهم ذكورهم واناثهم «الملك الافضل نور الدين علي ابن السلطان صلاح الدين». وكانت لهم زاوية تعرف باسمهم وهم مالكية ويرجع إليهم فضل ترتيب صلاة المالكية بالقدس [٢٤].

٣ ـ الأكراد : كان عددهم قليل على الرغم من وجود حارة تنسب اليهم.

٤ ـ الهنود : كان عددهم محدود، ولهم زاوية تنسب اليهم [٢٥].

٥ ـ المنفيون : بجانب الفئات الاسلامية السابقة نجد عددا من المنفيين نفوا الى القدس. وظاهرة النفي هذه كانت من المظاهر البارزة في تاريخ القدس خاصة في العهد المملوكي ومن هؤلاء المغضوب عليهم من استصحبوا معهم عائلاتهم وأتباعهم واستقروا في القدس بصفة دائمة.

ب ـ المسيحيون : لم يحدد أحد من المؤرخين عدد المسيحيين المقيمين في القدس بعد أن استرجعها صلاح الدين الايوبي. غير أن صفة المدينة التقديسية لدى النصارى أوجد فيها عددا من

---

(٢٠) W. Heyd. Histoire du commerce du Levant au Moyen Age, 2vols. (Leipzig : Furey Raymond, 1885), v. 2, p. 467.

(٢١) المصدر والصفحة السابقان.

(٢٢) المصدر والصفحة السابقان.

(٢٣) أبو العباس أحمد بن علي (ت. ٨٢١هـ/١٤١٨م)، نهاية الارب في معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الابياري (القاهرة : الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٩م)، ص ١٢٣ ـ ١٢٤، ١٥١ ـ ١٥٣، ٣٩٥.

(٢٤) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٣٩٧، ٤٠٢، ٥٨١، ٥٨٣.

(٢٥) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٩٩.

الطوائف والمذاهب المسيحية استقر أفرادها هناك منذ زمن بعيذ. وكان بها بطرك من طائفة الروم الارثونكس، مرسوم توليته البطركية يصدر عن النواب وأحيانا مباشرة عن السلطان. وكانت ألقاب البطرك الرسمية في العهد المملوكي على طريقتين، الاولى : «البطرك المحتشم المبجل فلان العالم بأمور دينه المعلم أهل ملته، ذخر الملة المسيحية كبير الطائفة العيسوية المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين وفقه الله تعالى». والطريقة الثانية : «مجلس القسيس الجليل الروحاني الخطير المتبتل ابن المطران الناصب الخاشع المبجل قدوة دين النصرانية فخر الملة العيسوية عماد بني المعمودية جمال الطائفة الفلانية صفوة الملوك والسلاطين فلان أدام الله تعالى بهجته» (٢٦).

أما فيما يتعلق بالطوائف المسيحية ومذاهبهم في القدس فهي التالية :

١ ـ الاحباش : كان لهم رهبان يقيمون في دير السيدة ماري اللاتينية.

٢ ـ الهنود : كانوا يتعبدون في كنيسة القيامة. وقد مات أغلب هؤلاء الاحباش والهنود بالاوبئة (٢٧).

٣ ـ الارمن : كان لرهبانهم أماكن خاصة بهم في كنيسة القيامة. وكان لهم دير خاص بهم ينسب اليهم.

٤ ـ النوبيون : كان مكان تعبدهم محاذيا للهنود والاحباش في كنيسة القيامة.

٥ ـ السريان : كان لهم أيضا مكان بكنيسة القيامة ودير ينسب اليهم (٢٨).

٦ ـ الاقباط : كان لهم رهبان بكنيسة القيامة وهم أقل الفئات المسيحية عددا.

٧ ـ اليونان : كان لهم مكان في كنيسة القيامة أيضا.

٨ ـ الافرنج : كان لهم مكان خاص بهم في كنيسة القيامة. وهم من اللاتين ولهم كنيسة خاصة بهم هي كنيسة صهيون (٢٩).

٩ ـ الكرج : لهم مكان في القيامة وكنيسة خاصة بهم تسمى كنيسة المصلبية (٣٠).

١٠ ـ الموارنة : كان لهم أيضا مكان خاص بهم في القيامة (٣١).

ج ـ اليهود : المجموعة الثالثة من سكان مدينة القدس في العصر الوسيط هي مجموعة اليهود وهم يعتبرون القدس مدينتهم المقدسة أيضا. والمعلومات عن هذه المجموعة في المصادر قليلة جدا. كان أغلبهم يعمل في التجارة غير أننا لا نعرف عددهم ولا نشاطاتهم الاخرى. ومن الواجب التأكيد على

---

(٢٦) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ، ١٩٤، ج١٢، ص ٧، ٢٩٤.

(٢٧) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٦٩٠.

(٢٨) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٤٣ ـ ٤٤٤.

(٢٩) المصدر السابق، ج٢، ص ٤٠٢.

(٣٠) المصدر والصفحة السابقان.

(٣١) للتفاصيل انظر رشاد الامام، مدينة القدس، ص ١٢٣ ـ ١٢٧.

أن أحوال اليهود بالنسبة لمختلف المجالات وفي جميع الاحوال كانت تحت حكم المسلمين أحسن منها بكثير لمَّا كانت مدينة القدس تحت حكم الصليبيين (٣٢). وقد كانت لهم حارة في المدينة تسمى باسمهم حارة اليهود. واليها نسب أحد أبواب القدس المسمى بباب حارة اليهود.

ثالثا ـ العلاقات بين هذه المجموعات الثلاث :

كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين واليهود في القدس حسنة ومتميزة بالتفاهم والتشاور وحل الاشكالات بالحسنى عند حدوثها. وكان أمن النصارى واليهود يعود بصفة مباشرة الى سلطة نائب السلطنة في دمشق أو نائب السلطنة في القدس. وكمثال على هذا الوضع يذكر المقريزي أن الامير تنكز لما باشر نيابة الشام سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م «عظم شأنه وأمن الرعايا حتى لم يكن أحد من الامراء يظلم ذميا فضلا عن مسلم خوفا من بطشه وشدة عقوبته» (٣٣).

غير أن هذه العلاقات كان يعتريها الاضطراب أحيانا لخلافات كانت خلفياتها دينية في الاغلب. ولا ننسى أن العصر الوسيط كان يتميز خاصة بالنسبة للمسيحيين بالتزمت الديني وتسلط رجال الكنيسة المباشر في نشاطات أتباعهم الدينية والسياسية وغيرها. لذا تتميز الاحداث التي جرت في القدس، وهي قليلة، في خلافات أو مشادات بين المسلمين والمسيحيين أكثر منها بين المسلمين واليهود. وكانت هذه القضايا تعرض على نائب السلطنة وأحيانا على السلطان نفسه ويبت فيها.

ومن ذلك مثلا أن أحد الصلحاء اسمه خضر العدوي المهراني كان مقربا لدى السلطان الظاهر بيبرس ويعتقد فيه الى درجة جعلت الشيخ يتصرف في البلاد المملوكية «بما يريد» فكان يحكم ولا يحكم عليه. حدث أن زار هذا الرجل القدس وهدم كنيسة المصلبة وظلم المسيحيين فيها وفي كنيسة القيامة. وقد قتل هذا الشيخ بأمر من الملك الظاهر سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م (٣٤).

وكانت تحصل حوادث اخرى بسبب شتم بعض النصارى للرسول (ص) أو لتشكيكهم في رسالته أو وصفه بأوصاف نابية، فكان القضاء الاسلامي يأخذ مجراه فيها. غير أن معظم الخلافات بين المسلمين من جهة والنصارى واليهود من جهة ثانية في القدس كانت نتيجة خصومات تتعلق بالابنية. لقد كان محظورا على النصارى واليهود، ترميم أو بناء أي مبنى ديني لهم في مدينة القدس. وكانت السلطة المملوكية شديدة الحزم في هذا الحظر. فبالاضافة الى رقابة السلط المحلية في المدينة وسلط نيابة السلطنة في دمشق. كان السلاطين يبعثون بمفتشين مزودين بأوامر سلطانية لتفتيش الاديرة وكشف ما استحدث من بناء أو ترميم. وكان هؤلاء يهدمون ما استجد بالأديرة من أبنية أو قبور

---

(٣٢) D. Margoliouth, Cairo, Jerusalem and Damascus : Three Chief Cities of the Egyptian Sultans (New York : Dodd, Mead and C°, 1907), p. 342.

(٣٣) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي (ت. ٨٥٤هـ/١٤٥٠م)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٤ج (القاهرة : مكتبة المليجي، ١٩٠٦ ـ ١٩٠٨)، ج٣، ص ٨٧.

(٣٤) المفضل ابن أبي الفضائل (ت. ٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد، ٢ج (باريس : بلوشيه، ١٩١٩ ـ ١٩٢٩م)، ج٢، ص٤٥٩.

أو قباب، وينتزعون ما أضيف اليها من مساحات أو ممتلكات [٣٥]. وكان هذا الهدم أو الاسترجاع يتم بعد التحقيق والمعاينة واقامة البينات [٣٦].

أما الأبنية اليهودية فقد كانت خاضعة لاجراءات منع البناء والترميم مثل النصرانية، كما ذكرنا. غير أن ما نلاحظه اعتمادا على الوثائق المتوفرة لدينا، ان خلافاتهم مع المسلمين ومخالفاتهم كانت أقل من خلافات ومخالفات النصارى. ومما يجب التأكيد عليه هنا هو أن حقوق النصارى واليهود كانت محفوظة بموجب عدالة الشريعة الاسلامية السمحاء. وللتدليل على ذلك نورد حادثة وقعت، سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٨م، وهي أشهر حادثة بين المسلمين واليهود في القدس. مع العلم أنها تكاد تكون الواقعة الوحيدة التي أحدثت قدرا كبيرا من الخلاف بين المجموعتين في الفترة التي تهمنا. اختلف المسلمون واليهود على دار واقعة بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين في حارة اليهود، وكان الطريق الوحيد للمسجد هو زقاق مستطيل. وحدث أن تهدمت هذه الدار بسبب تهاطل الامطار فكشف باب المسجد من جهة الشارع الكبير. فقصد المسلمون أخذ الدار المنهدمة باعتبار أنها من حقوق المسجد حتى يكون الدخول الى المسجد منها بدل الزقاق. فامتنع اليهود من ذلك ورفعوا أمرهم للقضاء وأظهروا مستندات استحقاقهم وملكهم لتلك الدار. وعقد على إثر ذلك مجلس ترأسه ناظر الحرمين، وحضره القاضي الشافعي والقاضي الحنفي وجمع من الفقهاء. وأصدر هؤلاء حكمهم في صالح اليهود وحكموا أن المبنى من جملة أوقاف اليهود. فلم يرض المسلمون بهذا الحكم ورفعوا أمرهم الى السلطان قايتباي بمصر فأتى مرسومٌ منه يأمر بالتحقيق في الامر ثانية. واجتمــع القضاة والفقهاء ثانية وصدر حكمهم بأخذ الدار المنهدمة بدعوى كونها محدثة. فرفض اليهود الحكم ورفعوا أمرهم للسلطان. وثارت ثائرة المسلمين وكادوا يبطشون باليهود فنهاهم أحد القضاة عن ذلك قائلا : «يا أمة التوحيد لا يعارضهم أحد فإن هؤلاء ذمة الله وذمة رسوله وذمّة أمير المؤمنين». وبعد أن رفع اليهود أمرهم للسلطان أمر قضاة القضاة بالديار المصرية وعددا من النواب والفقهاء للنظر في هذا الامر. وصدر على اثر ذلك مرسوم من السلطان سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م الى ناظر الحرمين بالقدس والخليل وإلى نائب السلطنة بالقدس يدعوهما فيه بتمكين اليهود من مبناهم. وكثر الجدل الى أن كادت تقوم على اثرها فتنة. عند ذلك قام القاضي الشافعي الى المكان المتنازع عليه وأشهد على نفسه بأنه يقول بعدم أحقية اليهود وأمر بهدمه فهدمه المسلمون على آخره. ولما وصل الخبر الى السلطان اعتبر عمل المقادسة خروجا عن طاعته. وتنفيذا لأمر سلطاني أرسل الى مصر القاضي الشافعي شهاب الدين بن عتبة وعدد من العلماء وهناك عوقبوا عقابا شديدا بحضور السلطان ثم سجنوا. وبعد ذلك رجع القضاة عن أمر المنع وأفتى جماعة من علماء الشافعية والحنفية بمصر بجواز اعادة المبنى لليهود [٣٧].

رابعا : الحياة الاقتصادية لمدينة القدس :

كانت القدس في العصر الوسيط محدودة الانتاج الزراعي والسبب الرئيسي في ذلك قلة مياهها، فقد كان يعوزها الماء حتى لكفاية حاجة سكانها فضلا عن ري أراضيها الزراعية، لذا كانت قليلة

---

(٣٥) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤.

(٣٦) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٧٧ ـ ٦٨٠.

(٣٧) المصدر السابق، ج٢، ص ٦٣٣ ـ ٦٤١.

الاشجار والخضر. وحتى الفواكه التي تنتجها كانت بعلية وأهمها التفاح والعنب والتين [٣٨]. وكانت تعتمد على انتاج السهول الزراعية التي تقع الى شمال القدس وجنوبها الغربي، وخاصة شجر الزيتون الذي لانتاجه شأن كبير في المدينة، وكان له سوق يطلق عليها«سوق الزيت»، وبجوار السوق توجد المصابن التي يصنع فيها الصابون من زيت الزيتون. يذكر المقدسي انتاج تلك السهول بقوله : «فقد جمع الله فيها من فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادة كالاترنج واللوز والرطب والجوز والتين والموز» [٣٩].

أما فيما يتعلق بالصناعة فقد اشتهرت القدس ببعض الصناعات منذ القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي وهي صناعة المرايا وقدور القناديل والابر والجبن [٤٠]. ثم في العهد المملوكي امتازت بصناعة الفضة التي كانت رائجة في المدينة، حتى أصبحت هذه الصناعة «تجلب من القدس الى سائر البلدان» [٤١]. وكذلك امتازت القدس بصناعة الصابون بكميات وافرة الأمر الذي مكن أرباب تلك الصناعة من التحكم في سعر الزيت لما لهم من قدرة شرائية تؤثر تأثيرا مباشرا في سوق الزيت [٤٢].

النشاط التجاري في القدس كان يتميز بحركية في ترويج انتاجها الصناعي المذكور اعلاه، ولم تكن تمثل مركزا تجاريا هاما فهي لم تكن تقع على أي طريق رئيسي من طرق التجارة. غير أنه على الرغم من هذا الوضع التجاري المحدود الاهمية كانت القدس تحتوي على عدة أسواق لا تخلو من البضائع والحبوب والفواكه المجلوبة من مختلف المناطق الشامية، بل لا تخلو أحيانا من بعض السلع المستوردة حتى من الشرق الاقصى [٤٣]. وكانت أسواق المدينة مقسمة على حسب البضاعة التي تباع في كل سوق. وقد أعجب الرحالة كازولا بأسواق القدس وذكر أن من أبدع ما رأى في المدينة الطرقات والاسواق المسقوفة التي تمتد بقدر ما يمتد بصر الناظر [٤٤]. وأشهر تلك الاسواق هي : سوق اللحم، سوق القماش، سوق الصاغة، سوق السمك، سوق الدجاج والدواب، سوق الخضار والفواكه والبهارات، سوق القمح، سوق الطباخين، سوق الزيت، سوق القطانين، سوق العطارين [٤٥].

بالاضافة الى هذا النشاط الاقتصادي كانت لتلك المدينة مداخيل أخرى تعود عليها بموارد رزق هامة تعين السكان على تحصيل عيشهم، ترجع في المقام الاول الى كونها مدينة مقدسة يتبرك بها الناس ويقصدونها للزيارات الدينية وعمل الخير. أهم هذه الموارد الوقف والحجاج النصارى.

---

(٣٨) أبو العباس أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت. ٧٤٢هـ/١٣٤١م)، مسالك الابصار في ممالك الامصار، مخطوطة آيا صوفيا، مصورة في الجامعة الاميركية في بيروت، ج٣، ص ١٨٠؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩.

(٣٩) شمس الدين محمد بن أحمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ليدن : بريل، ١٩٠٧م)، ص ١٦٦.

(٤٠) المصدر السابق، ص ١٨٠.

(٤١) غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري (ت. ٨٧٣هـ/١٤٦٨م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (باريس : المطبعة الجمهورية، ١٨٩٤م)، ص ١٨٠.

(٤٢) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٤٠٤، ٦٨٦ ـ ٦٨٧.

(٤٣) هايد، تاريخ التجارة، ج١، ص ١٧٥.

(٤٤) Pietro Casola, Pilgrimage to jerusalem in the year 1494 (Manchester : The University Press, 1907), p. 251.

(٤٥) انظر د. رشاد الامام، مدينة القدس، ص ١٥٠ ـ ١٥٣.

الوقف : كانت الاراضي والابنية الموقوفة على المساجد والمدارس في القدس مورد رزق كبير للاهالي. فقد كان السلاطين والامراء المماليك والاثرياء والمحسنون يوقفون ممتلكات يعود دخلها الى ما ينشؤونه من أبنية دينية وعلمية وخيرية. من ذلك الحكام الايوبيين والمماليك وخاصة منهم صلاح الدين الايوبي والملك الافضل والملك الصالح نجم الدين. ومن المماليك الملك الظاهر بيبرس والامير علاء الدين أيدغدي سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٧م والملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٠١هـ/١٢٨٢م. وكذلك السلطان الاشرف برسباي الظاهري والملك الاشرف قايتباي [٤٦]. وكانت جميع تلك الاوقاف مصدر تمويل أساسي خاصة للعاملين في المؤسسات من علماء ومدرسين وطلبة وموظفين ومؤذنين وعملة [٤٧]. ومما هو حري بالملاحظة أن المدارس التي بنيت في القدس في العهد المملوكي فقط تعد ٤٤ مدرسة ومعظمها لها أوقاف حبسها عليها منشؤوها لتصرف عليها وعلى صيانتها وعلى الموظفين الذين كانوا يعملون فيها. هذا بالاضافة الى أوقاف الحرم الشريف والمسجد الاقصى والمساجد الاخرى والزوايا وغيرها [٤٨].

وقد كانت هذه الاوقاف على نوعين، النوع الاول عبارة على أفران أو مباني للسكن أو محلات تجارية أو حارات في مدينة القدس ذاتها. والنوع الثاني يتثمل في تحبيس بعض القرى أو المزارع والحقول [٤٩].ومن الجدير بالاشارة أن الموقفين لاوقاف القدس لم يكونوا من المشارقة فقط بل من المغرب العربي أيضا. فقد ذكر أبو الفداء أن من الاحباس التي تشمل مزارع وحقول «أملاك بالشام» اشتراها ووقفها على حرم القدس السلطان أبو الحسن المريني سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، بمناسبة استيلائه على مدينة تونس ودخولها تحت سلطة عاصمته فاس. وقد كلفته تلك الاملاك عشرة آلاف دينار [٥٠].

الحجاج النصارى : كان مجيء الحجاج النصارى الى القدس واقامتهم فيها موردا هاما من مواردها. وقد كان هؤلاء الحجاج يتذمرون من تعدد الضرائب والرسوم المالية والنفقات الاخرى المختلفة التي كانوا يدفعونها سواء للسلطات الادارية أو لمن كانوا يتعاملون معهم من أبناء المنطقة بدوا وحضرا. خاصة عند نزولهم من سفنهم إلى يافا، والى أصحاب دواب النقل من يافا الى القدس، وعند البدو الضاربين في المنطقة ليسمحوا لهم بالمرور في أراضيهم، وعند أبواب المدينة، وفي المزارات... [٥١]. أما عدد الحجاج فهو غير معروف بصفة محددة، غير أن هؤلاء وغيرهم من الزائرين والرحالة الاروبيين كانوا يتجمعون غالبا في البندقية أو في جنوة ومن هناك تبحر بهم سفن هاتين المدينتين الى الاراضي المقدسة، وكانت هذه السفن تحمل عادة عدة دفعات من هؤلاء سنويا [٥٢].

---

(٤٦) انظر المصدر السابق، ص ٤٧ ـ ٥٦، ٦١ ـ ٧٣.

(٤٧) ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ج٣، ص ١٨٠؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٤٨) انظر مدينة القدس في العصر الوسيط، ص ٢٠٢ ـ ٢١٠.

(٤٩) ابن الوردي، تتمة، ج٢، ص ٣٢٩؛ أبو الحسن جمال الدين يوسف ابن تغري بردي (ت. ٨٧٤هـ/١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ١٢ج، (القاهرة : مطابع كوستاسوماس، ١٩٦٣م)، ج٧، ص ١٢١؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٣٩٧، ٤٠١، ٤٠٣.

(٥٠) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص ١٤٩.

(٥١) كزولا، الحج الى القدس، ص ٢٧٠.

(٥٢) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.

خامسا : الحياة العلمية في القدس :

كانت القدس في العصر الوسيط مركزا علميا هاما بجانب صبغتها الدينية البارزة، تستقطب أهل العلم وخاصة المدرسين والطلبة من مختلف أنحاء البلاد الاسلامية. وكان بعض هؤلاء يعملون بجانب التدريس بخطط أخرى في نفس الوقت، مثل القضاء أو الخطابة أو نظارة مدرسة أو ادارة مكتبة أو غيرها من الخطط الدينية والعلمية.

أما فيما يخص المواد الدراسية فقد كانت منحصرة في العلوم الشرعية واللغوية. من الشرعية علوم التفسير والحديث والفرائض والقراءات وأصول الفقه وكل العلوم المتصلة بالقرآن الكريم وقراءاته (٥٣). ومن اللغوية : اللغة العربية والبيان والادب والصرف والنحو (٥٤)، وبعض الحساب أحيانا. وهي المواد التقليدية التي فرضها حكام وتقليديو فترة العصر الوسيط من التاريخ الاسلامي. فقد ظهر منذ القرن الخامس الهجري تيار جارف نجح فيه خاصة علماء السنة في محاربة الفلسفة والمنطق ومختلف العلوم العقلية. وهي ردّة فعل ضد اتجاه التفتح العلمي والفكري الذي ظهر بقوة في القرنين الثالث والرابع الهجريين. نورد في هذا السياق قولتين الاولى للغالم الشهير الغزالي حيث اطلق على العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية «العلوم المذمومة»، وقال في كتابه احياء علوم الدين «لا تكن باحثا في علوم نمها الشرع» (٥٥). والقولة الثانية لابن كثير في مجال حديثه عن الاشرف موسى ابن العادل الأيوبي : «ولما ملك دمشق في سنة ست وعشرين وستمائة نادى مناديه فيها أن لا يشتغل أحد الفقهاء بشيء من العلوم سوى التفسير والحديث والفقه ومن اشتغل بالمنطق وعلوم الاوائل نفي من البلد» (٥٦).

وقبل أن نتحدث عن المدارس في القدس تجدر الاشارة الى أنها كانت مقسمة حسب المذاهب السنية. فمنها المدارس الشافعية لتدريس المذهب الشافعي، والمدارس المالكية للمذهب المالكي، والحنفية للمذهب الحنفي، والحنبلية للمذهب الحنبلي. في حالات نادرة نجد المدرسة الواحدة تدرس مذهبين... وكانت وظائف المدرسة على نوعين علمية وادارية، فالعلمية أهمها وظيفة شيخ المدرسة أو مدرسها وكان المدرسون ينتقون من أكفأ العلماء. وفي المدارس الهامة والمشهورة كان يعين المدرس بمقتضى أمر سلطاني (٥٧). وكان الطالب اذا ما أتقن علما من العلوم سلمه المدرس شهادة يطلق عليها الاجازة يجيز بها الاستاذ الطالب تدريس مادة معينة أو كتاب محدد، أو عدة كتب. وللطالب أن يجمع إجازات عديدة من مدرسين مختلفين في علوم متنوعة. وكان يساعد المدرس معين أو معينان «يتولى شرح الدرس للطلاب ويفسره ويأخذ بيد الطلاب الضعاف ويساعد المدرس في شؤون التدريس عامة... وكثيرا ما كان يرقى المعيد الى مدرس. وكان من الجائز للمعيد في مدرسة ما أن يعمل مدرسا في مدرسة أخرى. كما كان هناك ما يسمى نائب المدرس أو نائب التدريس، وهو الشخص الذي يتولى التدريس نيابة عن المدرس الآصيل بتفويض منه» (٥٨).

---

(٥٣) عماد الدين ابن عمر بن كثير (ت. ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ج (القاهرة : مطبعة السعادة، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩م)، ج١٣، ص ٢٢٨، ج١٤، ص٤، ١٠٤، ١٤٢؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ٣٣٧.

(٥٤) السنخاوي، التبر المسبوك، ص ١٣٠ ـ ١٣١؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٥٢٨.

(٥٥) احياء علوم الدين، ٢٩/١، عن كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس (عمان : جمعية عمال المطابع التعاونية، ١٩٨١م)، ص ١٦.

(٥٦) البداية والنهاية في التاريخ، ج١٣، ص ١٤٨.

(٥٧) صبح الاعشى، ج١٢، ص ٢٤٦.

(٥٨) معاهد العلم في بيت المقدس، ص ٢١ ـ ٢٢.

أما الوظائف الادارية فالأولى هي الناظر وصاحبها بمثابة المدير العام للمدرسة «يتولى ادارة شؤونها العامة ويؤجر العقارات الموقوفة عليها ويشتري لوازمها ويصرف الرواتب للموظفين» (٥٩). وكان هذا الناظر من العلماء بل يشارك في التدريس في أغلب الاحيان. الوظيفة الثانية في الاهمية في المدرسة ترجع الى خازن الكتب «الذي كان يتولى شؤون المكتبة ويشارك في التدريس»... وكثير من الخزنة كانوا من كبار المؤلفين والعلماء (٦٠).

بالنسبة للطلبة فقد كانت لهم الحرية المطلقة في اختيار المدرس والدرس الذي يريدونه. لذا كان عدد الطلبة في الدرس الواحد غير محدود بل يرجع الى شهرة المدرس وكفاءته، غير أن هذا العدد كان عادة يتراوح بين العشرين والسبعين طالب في الدرس وأحيانا يفوق ذلك يكثير، وكان الطالب يقضي في المدرسة حوالي عشر سنوات. وقد كانت هذه المدارس في معظمها للملوك أو الامراء أو الخواص من علماء وأثرياء. وكانت مستقلة في ميزانياتها وشؤونها المالية عن أموال الدولة بفضل ريع الاوقاف الذي يمثل مصدر التمويل والانفاق. لذا كان ازدهار المدرسة وبقاؤها يتوقف على مدى انتاجية أوقافها (٦١).

كانت مدينة القدس عاصمة من عواصم العلم والثقافة وكانت مدارسها العديدة مركز اشعاع للعالم الاسلامي مشرقه ومغربه (٦٢). فقد ضمت المدينة المقدسة أربع وأربعين مدرسة أنشئت جميعها بين فتح صلاح الدين لها وآخر عهد المماليك. أولها المدرسة الصلاحية أسسها صلاح الدين الايوبي سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م. وآخرها المدرسة الاشرفية أمر ببنائها الملك الاشرف قايتباي سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م، وهي التي يذكرها الحنبلي بقوله : «وصارت جوهرة ثالثة وهي قبة الصخرة وقبة الاقصى وهذه المدرسة» (٦٣).

سادسا : المسجد الاقصى كمركز علم :

لقد استمدت مدينة القدس عظمتها من المؤسسات العلمية والدينية والخيرية التي تميزت بها عن غيرها من المدن. وكانت صفة القداسة التي تتمتع بها في العالم الاسلامي سببا رئيسيا لمكانتها وشهرتها، بصفة ميزتها عن بقية مدن العالم قاطبة. والفضل الآكبر في قداستها لدى المسلمين يرجع الى المسجد الاقصى الذي كان في بداية الفترة الاسلامية قبلة المسلمين، ومنه عرج بالنبي (ص) إلى السماء، ومدحه الله تعالى في تنزيله بقوله : «سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) (٦٤).

---

(٥٩) المصدر السابق، ص ٢٢.

(٦٠) المصدر السابق، ص ٢٢ ـ ٢٣.

(٦١) المصدر السابق، ص ٢٣.

(٦٢) محمد الحبيب الهيلة، «القدس واشعاعها الثقافي في المغرب والاندلس»، دراسة ألقيت في المؤتمر الثالث لتاريخ بلاد الشام، عمان (١٩٨٠م).

(٦٣) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٣٨٧. فيما يتعلق بهذه المدارس مع جميع التفاصيل المتعلقة بها انظر مدينة القدس في العصر الوسيط، ص ١٨٨ ـ ٢٠٢ ومعاهد العلم في بيت المقدس، ص ٥٤ ـ ٢٩٧.

(٦٤) القرآن الكريم، سورة الاسراء، آية ١.

بالاضافة الى هذه المكانة المرموقة للمسجد الاقصى، تفوق أيضا بكونه من أعرق وأثرى مراكز العلم في العالم الاسلامي بكامله. وكانت تشد له رحال العلماء والطلبة للتحصيل والتخصص في العلوم الدينية واللغوية خاصة. وزاد الاهتمام بالمسجد الاقصى كمنبع أصيل من منابع المعرفة بعد فتح صلاح الدين الايوبي للمدينة وفي كامل العهد الايوبي والعهد المملوكي، فزاده ذلك شهرة وفضلا.

وقد ميّز ابن القدس البار ومؤرخها المقتدر مجير الدين العليمي الحنبلي في كتابه الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل وفي الجزء الثاني منه، ميّز المسجد الاقصى بالبحث المتعمق الشامل وأورد «سيرا مختصرة لحوالي ٤٤٠ عالما وقاضيا وخطيبا ومؤلفا ممن عاشوا وعملوا في بيت المقدس منذ الفتح الصلاحي وحتى سنة ٩٠٠ للهجرة، أي خلال ثلاثمائة سنة. وهذا الجمع الغفير من العلماء لا يشمل بالطبع الا جزءا من العلماء والفقهاء الذين عملوا في القدس وفي المسجد الاقصى...» [٦٥]. وكان أهل العلم يقصدونه من بلاد الهند والافغان وفارس والعراق وسوريا ومصر والمغرب [٦٦]، والاندلس للدرس والتدريس [٦٧].

أما الدروس التي كانت تلقى في حلقات الطلبة سواء في المسجد الاقصى أو في مسجد الصخرة فقد كانت لا تختلف في موضوعاتها واجازاتها عن مثيلاتها التي كانت تلقى في المدارس. وهي تشمل العلوم الشرعية من فقه وحديث وأصول وقراءات وتفسير ووعظ...، والعلوم اللغوية من لغة عربية وآداب ونحو وصرف... [٦٨].

سابعا : الزوايا كمراكز علم :

لقد ظهرت الطرق الصوفية بشكل مكثف في العالم الاسلامي في القرن السادس الهجري. وفي نفس هذه الفترة التاريخية تواجدت تلك الطرق والزوايا التابعة لها في القدس وتواصل عددها في ازدياد في الفترات الزمنية اللاحقة. وقد شجع المماليك انتشار الطرق الصوفية، ومن الملاحظ أن « في القرن الثامن بشكل خاص انتعشت الحركة الصوفية في القدس وأسست أكثر من نصف الخوانق والزوايا والربط فيها...» [٦٩].

وعند بحثنا لزوايا القدس في العصر الوسيط، نجد أن المدينة كانت تضم أكثر من ٢٠ زاوية، معظمها كان مركز تعليم للاطفال الصغار، وهي مرحلة تعليمية ابتدائية تسبق الالتحاق بالمدارس وحلقات العلم في المساجد [٧٠]. غير أننا نجد أن بعض الزوايا في القدس كانت تعقد فيها الحلقات التدريسية العالية والمتخصصة. وهي من هذا الوجه في حكم المساجد والمدارس. وقد كان المدرسون في هذه الزوايا يتمتعون برواتب معينة تصرف عليهم من أوقاف الزاوية، على غرار المدرسين في المسجد الاقصى وفي المدارس.

---

(٦٥) معاهد العلم في بيت المقدس، ص ٣٥.

(٦٦) انظر القدس واشعاعها الثقافي فيالمغرب والاندلس، ص ٥.

(٦٧) معاهد العم في بيت المقدس، ص ٣٦.

(٦٨) السخاوي، التبر المسبوك، ص ١٣٨؛ الحنبلي، ج٢، ص ٥٣٨، ٥٤١، ٥٦٥.

(٦٩) معاهد العلم في بيت المقدس، ص ٣٠٢.

(٧٠) العمري، مسالك الابصار، ج٣، ص ١٨٠.

وقد وجدت في القدس زاويتان كانت تلقى فيهما الدروس على الطلبة باستمرار وهما :

١ ـ الزاوية الخنثنية أو الختنية، وكانت تقع بجوار المسجد الاقصى وقفها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م السلطان صلاح الدين الايوبي على رجل من أهل الصلاح وهو الشيخ الزاهد جلال الدين محمد الشاشي المجاور في بيت المقدس. وينص وقف هذه الزاوية على أنها ترجع بعد وفاة الشيخ الى من يحذو حذوه من أهل الصلاح والزهد والورع، وكذلك الى طلبة العلم فيها (٧١).

٢ ـ الزاوية الناصرية وكانت تقع قرب باب الرحمة، أنشأها الملك المعظم عيسى وجعلها زاوية لقراءة القرآن والاشتغال بالنحو خاصة. وبسبب كثرة الكتب التي كانت موقوفة عليها أمها الطلبة، مثل الزاوية الخنثنية، باعداد كبيرة في العهد الوسيط (٧٢).

وبهذا نرى أن مدينة القدس امتازت بصبغة دينية كلها جلال وقداسة، وكانت هذه الصفات تزداد تأكدا بمر القرون الشيء الذي جعلها عاصمة العلم والمعرفة في كامل العالم الاسلامي بالاضافة الى كونها المركز المقدس للمسيحيين واليهود. وهذا الوضع ضمن للمدينة الصمود والبقاء على الرغم من قلة مواردها الاقتصادية وعدم أهمية موضعها استراتيجيا حتى أنها لم تكن عاصمة لا سياسية ولا ادارية في العصور الوسيطة، الصمود في وجه كل محاولات الاستيلاء عليها في الفترة التي تهمنا في هذه الدراسة. وحتى اهتمام السلطة الايوبية والمملوكية المتزايد بالقدس كان مرجعه أهمية المدينة القصوى دينيا خاصة بالنسبة للمسلمين. وقد انعكس هذا الاهتمام المتواصل عن مجالات ايجابية وبناءة متعددة منها المجال الديني والاقتصادي والعلمي والعمراني. ومن ذلك أيضا عمل السلطات الاسلامية بكل حزم على ضمان تحقيق أكبر قسط من أمن واستقرار لمختلف المجموعات والطوائف الدينية المتعايشة فيها. ويمكننا أن نلاحظ، كما سبق، أن الخلافات بين تلك المجموعات الدينية كانت قليلة وثانوية جدا. ويمكننا التأكيد ان كلا من المسيحيين واليهود كانوا يعيشون في أمن وحرية مع السكان المسلمين تحت لواء الحكم الايوبي والمملوكي الاسلامي. وكذلك يجب التأكيد على أن عدد المسيحيين واليهود بالقدس كان ضئيلا جدا بالنسبة لاهل البلاد المسلمين. ونتيجة لذلك كان تأثير النصارى واليهود مجتمعين، في حياة مدينة القدس محدودا جدا. أما تأثير المجموعة اليهودية فقد كان غير ذي بال حتى بالنسبة للمجموعة المسيحية.

---

(٧١) الحنبلي، الانس الجليل، ج٢، ص ٣٨٠، ٣٨٦، ٥٤٦.

(٧٢) المصدر السابق، ج٢، ص ٣٨٠ ـ ٣٨٦، فيما يتعلق بالمعلومات المفصلة عن هذه الزوايا وغيرها من زوايا القدس أنظر : مدينة القدس في العصر الوسيط، ص ٢٠٣ ـ ٢١٠؛ ومعاهد العلم في بيت المقدس، ص ٣٤٢ ـ ٣٦٨.